حامد الفقيه

أغنية لأمي
وثلاث حكايات للعابرين

قصص قصيرة

دائرة الثقافة - الشارقة 2021

إهـــداء

للوجع وهو يترصد الخُطى المنهكة، ويأسر
ملكوت البراءة من ملامح طفل (القوارير).

بانتظار أن يســتحيي من دموع المقهورين.

شكر وتقدير

من وهبوني من أوقاتهم، لتسافر أحرفي في أعينهم فيزدان بريقُها كل الشكر ووافر الامتنان:

د. عبدالعزيز المقالح . د. حاتم الصكر . د. عبدالحميد الحسامي

د. محمد الحصماني . محمد الغربي عمران . د. خالد الشامي

أ. عائشة المزيجي . د. عبدالله الغبسي . أحمد الأسعدي

صفوان الشويطر . زاهر حبيب . جميلة الطلول

غدير الخاوي

مفتتح

لم تعد القصة القصيرة في الوقت الراهن كما كانت عليه قبل ثلاثة أو أربعة عقود، ليس في تقنيتها السردية فحسب، وإنما في لغتها التي باتت أقرب ما تكون إلى لغة الشعر.

والقاصُّ حامد الفقيه في هذه المجموعة القصصية؛ شاعر وقاص بامتياز، وهو في طليعة كتّاب القصة القصيرة، وله رواية تحت الطبع، وأنشطة إبداعية مختلفة، تظهر في العديد من الصحف والمجلات اليمنية والعربية.

د عبدالعزيز المقالح

صحيفة الثورة

ثلاثة وجوه للصفيح

"لكِ وجه تشرق منه شمس الصباح؛ فتلمع قطرات الندى المتضمخة بخصلاتك المقتبسة من الليل سوادها.

بلقيس أنت ملكة السعيد بكِ وببرعمك الممتلئ بالحياة، وأنا ريّ عودك إن ظمئ، وهواء يُراقص أفنانك إن أوحشها السكون، وأنت شمسٌ تبعث الحياة في شوارع الإسمنت التي تدمي قلبي قبل قدمي، وزهرة الأمل التي تعبق بأنفي فتطرد رائحة القوارير المقبلة بروائح شفاه المتخمين".

بفاتحة كهذه أستعيد كل صباح أدفن فيه وحشة قدري الذي أعيشه منذ عشرين عاماً من الذكرى، وأسائلك:

- سعيد أكان ربيعك التاسع بداية فصول الشقاء؟

- لا يا مليكة فالعام يبدأ بصيف

- وعمرك كله صيف، فكم حكت شمس الشقاء أسفارها على وجهك.

في ذلك العام الشؤم؛ رششت عليّ قطرات ندىً، أسعدت زهور ربيعي السابع، وهَأنا اليوم أتيقن أن قطرات الندى تلك؛ لم تَجُدْ بها عليّ سماء البخل، إلا بمبادلتك عرق الظهيرة المالح الغزير على جبينك، وأنت تجول الحارات وتنبش في براميل نفاياتها الصدئة، تبحث عن قوارير بلاستيكية؛ لتملأ كيسك اليومي وتبيعه ببضع عشرات من الريالات لمُلّاك " مصنع إعادة تدوير البلاستيك" قلت إنك هواء يُراقص أفنان براعمي، وأنت تقايض هواء

الأفنان بتجفيف الرطب من شفتيك وحلقك ريّ غصني يا سعيد لم يكن إلا من ماء روحك السمراء، وقد أعجب بك رب مصنع البلاستيك فطمع بك أجيراً فقبلت لم تكتف برائحة النفايات المتعفنة، بل صرت في المصنع تغسل القوارير قبل بدء تدويرها، وتدعك لعاب الشاربين المتيبس على فوهات القوارير بحنق كنت أتَرجّاك أن تتركني أعمل، كي أساعدك في جلب فُتات يومنا فتأبى، وتخاصمني مظهراً وجهاً لم أعهده إلا يوم رجائي هذا وتقول:

- ما عساها مدينة الشره؛ وقلوب الإسفلت؛ أن تؤمّن لك عملاً للقوت لا ريال يسقط من أسنانهم إلا إذا سال لعابهم الصديد، ولن أسمح لنَهَمِ الوحوش أن يسلبَ بسمة الحياة من شفتيك.

- لم أكن أريد يا سعيد إلا أن أُرجئ ألمك بعض يوم من أيام انتظار (الرُّويْتِب) في آخر الشهر.

تفتح للفرح باباً وتوصد باب الوجع ذاك؛ وأنت تحكي عن سنة تكتمل ملامحها من عمري:

- "بلقيس ربيعك الجديد هو تالي سماوات الله السبع، وسأعرج معك فيه إلى السماء الثامنة، وفيها جنة الطفولة التي سُلبت منهم في الأرض".

- هكذا قلت لي وأنت تعارك صيفك العاشر الطافح بلهيب الوجع، يتراءى لي يومَها وجهُك الملتهب؛ إثر سياط الشمس من بين أكوام البلاستيك، فتدرك مقدمي، تسرع إلى حوض الماء العكر الذي تغسل فيه رزقنا، وتغسل وجهك لكي لا ترى إحساس الشقاء في روح الشقيقة أو كما تدعيها "المليكة" يعاجل عَجَلَك مشرط صدئٌ رماه أحد المتخمين في قارورة حمراء، تغرفه مع كف الماء المغبر، لتطفئ حريق وجهك لتقابلني، فخطَّ المشرط على وجهك جولته الناقصة سمعت تأوهك الصامت، فهرعت إليك وأنت تمسح قطرات دمك من على وجهك، وهي تقفز بشره طفل فُتِحَ له باب المرح ليلعب مع أقرانه.

يومها آنستك بفجيعتي:

- لا عليك يا أخا الشقاء وسند البقاء أتعلم ما هذا الجرح إلا شامة الحلم المنتظر.

لم تبارح صيفك ذاك؛ إلا وحلمك المفزع، يجعل من ربيعك المرجو صيفاً أبديّاً، فأواسي خوفنا:

- لا تخف يا سعيد أضغاثَ أحلام، وما الحلم لأمل الشقاء بنازعٍ

يذهب حلمك ويجيء كل ليلة فتذهب معه عافيتك المرجوة، ويسكنك الألم.

يا وجعي في خلوتي كنت أسترجع سرد الحلم من شفاهك الفَزِعَة، وأنفاسك الخائفة، وأصابعك المرتبكة:

- "أرى يا مليكتي قطرات دمٍ حمراء ،تنزف من جرح وجهي فتتضخم قطرات الدم تلك فتقفز إلى داخلها شياطين حُمر، كانت تلعب على حد المشرط اللعين".

وازددتَ سوءاً جسدياً ونفسياً يا سعيد؛ فمنّ علينا رب المصن، وأعطانا راتب شهرك الأخير وقد حجزه أربعة أشهر؛ ليضغط عليك كي ترجع للعمل فكان راتبك ذاك سداد ورقة فحص دمك.

كل يوم تهزل أكثر؛ فتضمر روحك الكبيرة أما روحي أنا فماتت يوم أن قدم إليّ طبيب المختبر وبيده ورقة فحص دمك وهو ينظر إليّ بريبة:

- أنا آسف للخبر سعيد مصاب بمرض نقص المناعة المكتسبة "إيدز " فعادت بي الذاكرة المحتضرة إلى المشرط الصدئ.

تقلّبْنا أياماً على نار وجعك جائعين، نسترحم الجوع بأصوات عصافير بطنينا الصارخة، ونقول قد يستحي الفقر وهو ينهك الجائعين الفقراء.

على فراشك تذبل يوماً عن يوم، تحسّ وقع دموعي المالحة على جرحك المفتوح، فتنظر إلى الحزن فيّ وتسترجيه، وأملنا أن الحزن قد يغْرق وهو يُمطر بدموع المقهورين.

ذات ليلة وعلى مقربة من الوداع؛ زفرت أنفاسك بكلمات تخرج من قعر روحك الذابلة:

- كم كانت تفرحنا الأحزان الجميلة، أتذكرين تلك الليالي حينما كانت تخرج أمي في الليالي المقمرة، ونجلس على ذلك الصفيح كانت تغني فتسرق نبض القمر، وكان إيقاعُ أغانيها؛ دموعها الضاربة بأكفها المالحة على وجه الصفيح الصدئ، كنا نلعب ونفرح يا (بلقيس).

- أكان لعبنا ذاك رقصاً لأغنية أمي المالحة؟

- ليتنا نعاود الرقص هذا المساء كما كنا نرقص يا مليكتي

جفت كلماتك بعد تلك الأمنية كما جفت روحك بعد حين من تلك الذكرى.

حزيران 2011م

رائحـة البُنّ

يصرخ الطفل وبيده زجاجة الحليب المفزوعة قطراتها الأخيرة بينما تسكب الأم غزير دموعها التي سلبت ما بقي في ثدييها من رحمة لجوع ابنها.

ضرب الابن الأكبر صدره متألما، فنسف آمال عقده الثاني الذي ابتدأ بيومه ذلك 13 يناير2011م، وهي ذكرى إعاقة أبيه في مجزرة سلبت بسمة (الثغر الباسم) أنزل شهادته التقديرية الجامعية من الجدار ودسها بين ثيابه وعفر يديه بالتراب، قبض على معوله، ويمم وجهه نحو السفح يضرب بفأسه جذع شجرة الأثل، فتوجف على وجهه من ملحها؛ فيختلط على جبينه المتعرق فيُشعل ألمه يحمل على كتفه حزمة الحطب، ويستعرض على (سفح الغريب (ظله، وهو منطوٍ تحت أعواد "الأثل" الثقيلة المالحة.

وهناك حيث المنادون أكثر من المستمعين؛ والسوق متداخل الأصوات؛ رجاءٌ وترويج، وصوت ثالث تطغى نبرة وجعه على كل الأصوات وبضاعته لا تطلبها إلا عجائز المدافئ، وباكيات التناوير الطينية والسفح رزق هؤلاء.

جالس والشمس تحكي أسفاراً على جبينه المحمر من عرق وملح قائم والجوع يرعد صوته في سماوات قامته الفارعة تائه وصرخات أخيه الرضيع تخرق ذاكرته بمغزل الاسترحام، وطلب الحليب.

أمامه دقيق الحليب المجفف متكوم، وتقوم عليه عجوز تروج بيعه:

- حليب صبر حليب من بقر الريف

لهجة الحاجّة توحي بأنها من جبل صبر المُفْترَس من قبل شمسٍ ضارية.

- الحليب بين يدي العجوز سرق لب صاحب الحطب ذي الجبين المحمر.

الحليب استغرق جهداً وناراً حتى جلبته العجوز وأنا سأتحمل شمس أيامي حتى أبيع أعواد الأثل وأجلب الحليب من حر أيامي الأصوات تشتد وتتعالى مع إقبال جمع آخر من المتسوقين.

وفجأةً تُحملق العيون ويتساقط زحف الأصوات ابتداءً من مدخل السوق إلى قعره، وكأن إشارة موسيقار؛ تشير للعازفين آلامهم أن يصمتوا.

لم يكن الموسيقار إلا (زينة السوق) كما يدعونها لها ساقان تجيدان الالتواء، كغصن طري تنتصب وسط صفي البائعين ويحزم خاصرتها خيط نحيل.

تخفق الأيادي وتصفر الشفاه المتعبة وتتابع أصوات الترويج؛ فتمتد أيادٍ بما تملك من نقود بينما عينا بائع الحطب تقعان على مكان وقع النقود -مفرق نهديها الممتلئين- وهو الشاب الوالج عقده الثالث؛ لم تفترش عيناه بساطًا كهذا الذي يراه يقبض على نظره بقوة، ويعاود النظر مرة أخرى إلى ثدييها الممتلئين، فيتمني أن يبيع حطبه ليجلبها إلى بيته؛ كي تسكت صُراخ أخيه، وتشبع جوعه.

يمسك بعض نقود تحت حر شمس الصيف على بعد أيام من انتهاء حزيران كابوس العام، فيشق الصفوف المتجمعة حول (زينة السوق)، وينظر في موضع ورقة النقود في يومه الأول؛ ليراهما أما زالا ممتلئين؟

يقترب ويمط عنقه تجاه أذنها؛ فتميل بغصنها ليحتك بصدره وترخي أذنيها فيندفع نَفَسُه الملتهب بكلمات في أذنها؛ فتفغر فاها، وينتصب عودها على أصله فتتوقف الأيادي على بعد لمسة من أن تصفق تستجمع ربة العود المنتصب قوامها، وترجع إلى حانوت يزدحم فيه (مواء) أبنائها، تفترش الأرض فيتسارع طفلاها ويمتصا اللبن المخضوب في صدرها وما

زال ساخناً يحلج أمعاءهم وتمد يدها للآخرين بخبز وماء وقد أكلوا ما باعته من وجع عودها وسط بائعي النظرات.

وضع بائع الحطب أعواد الأثل التي لم يبعها بين يدي بائعة الحليب علّها تجلب حليباً، وتعطيه مقابل أعواده في المرة القادمة.

يعود إلى البيت والباب يُفتح على حشرجات صوت أخيه، ينظر في وجهه الذي جف كما جف ثدي أمه، ويتأمل عينيه اللتين غارتا وهما تنتظران عودته برطب يديه.

أذّن الديك لأبواب الفجر الرمادية أن تُفتح، وفتحت الشمس عينها على تقرفص الابن الأكبر في سوق (حراج) العمال، وحينما اشتد عود الشمس احترق حلم العمل لصاحب الشهادة المدفونة بين الثياب ومع إحراق الشمس لنسيم الحلم فاحت رائحة البُنّ في أنف العامل الشاب، وكلما كبُر قمر البطالة مع اقترابه من نصف شهر فبراير الدافئ؛ عبقت رائحة البُنّ أكثر على مقربة من جولة العمال وفي يوم الرابع عشر من شهر فبراير توالت أصوات متداخلة هزت ذاكرة العامل المالحة بذكرى سوق الأثل وهاله ما رأى.

عاشق فبراير تخفق بيديه راية حمراء وتقابله محبوبته الجميلة، تشاطره حمل الراية التي تسبح رائحة البُنّ على ثناياها.

تذكر صوت أخيه فغض الطرف عن الأصوات العاشقة، واستمر تحميص الشمس للبُنّ وتكاثفت أنسامه.

وهاهو فبراير يخلع أيامه الحمراء، ولم تغب رائحة البُنّ والشمس تسبح في جباه الحالمين، ودّع (جولة العمال) عائداً إلى صراخ أخيه خالي الوفاض، وقد شدّ على أذنيه بقطن محكم علّه يشفع له بغفوة نوم أخذ يقلب شهادته وقد مرّ على تاريخ إصدارها عامان بالتمام وهو يحفظ هذه الذكرى بمحبة أمه -الحادي والعشرين من مارس- قبل عامين حين أهدى أمه آخر معايدة ووعدها بهدية من وظيفته المؤكدة، لأنه الأول في الدفعة لعامه الجامعي، وإعادة حركة أبيه المحنطة على عجلتي الكرسيّ المتحرك.

عيد الأم على بعد أيام؛ وهديتها كما أخبرته أن يسكت صراخ أخيه، نهض من مرقده كي يقبل رأسها ويهديها وجع بحثه عن لُقَيمات تداعب أسنان أخيه المتخطي الحولين بأنات المشيَّخ، ناداها وزاد صراخ أخيه بجوارها أراد أن يهديها بسمة فأهدته حِملاً، أراد أن يقبل رأسها فوسده على فرش خلودها وما زالت عيناها تسترجيه:

- أخوك أخوك

حمله على كتفه؛ يلحق رائحة البُنّ في ميدان شباب الراية الخفاقة، وهم يمضون شهراً وبضعة أيام في ساحات افترشوها ليل نهار يصلي مع الجمع ويؤمّن على دعوات تسترجي الرحمة أن تنزل، بينما تتقافز أسنان سيد الحولين على رغيف ما زال رطباً من يدي (سبأ) بنت ثورة البُنّ.

ينهي تسليمتي ركعتي الجمعة فيرفع أخاه على كتفه ويهتف:

- مرحى رائحة البُنّ!

وتتعالى هامته لتقترب من الرائحة أكثر، وهاهي رائحة البُنّ تعبق في أنفه مع ارتطام رأسه على ثرى ساحة الشباب، وهو يسكب ثمن تلك الرائحة.

وما زال أخوه الأصغر ينتظر يدي (سبأ)؛ تشاطره القبض على قطعة الرغيف؛ لتعاركها أسنانه وكان يومه ذاك هو الثامن عشر من مارس المكرم.

نيسان 2011م

ألواح القدر

إهداء: للثغر الذي كان باسماً مدينة عدن

(لقد خطت ألواح القدر سوادها)

بهذه الفجيعة استفتح الصباح هدوءنا وجمد دفء سرائرنا، نطوق المسافة الفاصلة بيننا بحضنة خوف وورد روحي لفاتحة الوجع، نتحاشى زفير الأنفاس رغبة في سماع قارئ الألواح.

نستجمع الدفء بكل ما أوتينا من لمّات ونصرخ في وجه الصوت، نعاود التفكير الصامت في وجه قرار قدري كهذا.

تنثر الشمس تفاصيل الصباح ،فتولد الحركة التي تبعث لنا الطمأنينة، فالشارع ما زال يستقبل الحركة، وصفير الحياة ما زال يعزف جوقاته المتتالية الصخب لأولاد يهرعون إلى مدارسهم.

النوارس توقظ الموجة الكسولة على (ساحل العُشّاق)[1]، وعين الفنارة تنعس بمقدم الشروق وتستأذن للنوم.

نطمئن بعضنا أن الصوت ليس إلا حلمَ فاسقٍ بعد فجرِ عشقٍ.

لكن أبناءك لم يستفتحوا صباحنا ككل يوم ببسمة الطاعة وطلبهم المعتاد حتى إنهم تركوا المنزل يهرعون على أقدامهم الزرقاء، ويعانقون رصيف الصباح بحنق يظهر أثره قارعاً على وجه الرصيف.

---

1. ساحل العُشاق: من أجمل سواحل مدينة عدن.

هاهي الطريق تحمل يومياتها ونستفيق نحن إلى قطار نستقله في يومياتنا المعهودة.

لم يعد لقطارنا دورانٌ ولا لصفيره صدىً، ظنَنّا أن الأمرَ بعضُ من نواقص الآلة كي تدور؛ وبعد فحصنا له أدركنا أنه ما عاد في آلاته روح الحركة.

قَوِيَ عود شمس شباط، واشتد حرّها رغم أن عادتنا بها الاعتدال وبشيء من اللباق؛ استجمعنا فجيعتن، وهمَمْنا بالمضي لأعمالنا ولو قرعاً على رصيف عدن المملوء بأقدام القارعين.

عانقتنا لوحة على عتبة الدار مفجعة حروفها:

"لقد خطت ألواح القدر سوادها".

فاستعدنا خطانا إلى فرش نستجمع فيها تماسكنا في وجه أوجاع هذا الصباح.

كنتِ تخفين في ملامحك الفزعة خيوط كنه هذا الصباح، ومع دمعاتك المرتعشة تقيأت الوجع الذي يحز بسكين صمته لحظاتك:

- إيه يا وضاح لقد حلت اللعنة !!

أرعدتني كلماتك المؤيدة أو بالأحرى المستسلمة لصباح الوجع ونداءاته المرعبة أستجمع قواي وأستند على ذاكرة مجيئي لحضنك الجنة، أستحضر عهودنا بأن نعانق الموت معاً.

- اللعنة، القدر، الفراق، الرحيل مفردات صارت تضاجع لحظاتي إما باستحضارها أو بدوي هتافات؛ يضج بها بيت بنيك التي احتسبتني يوما أباً لهم، أرمق سحنتهم السمراء وشعرهم المتجعد بإنكار انتمائهم لبشرتي البيضاء وخصلاتي السلسة.

إيه يا بنت الموج العنيد، لقد تركت دياري تنوح، وأطلالي تئن خاوية، وهرعت إليك وأنتِ بائعة فلّ يعبق به نيسان العام، فحسبت أن روائحك كلها فلّ وعامك كله نيسان، هجرت أهلي وهم يتداركون حنقي بحسناوات الخدور، ورحلت وقد ضربت بحسناواتهم عرض الهرب وطلبتك أنت أيا بنت الساحل وأغراني كحل عينيك الصامد في وجه ملح

بحرك، وهَأنتِ اليوم تلفظينني بأمواج ليست لك؛ على شاطئ تلهبه شمس التنكر، شاطئ دامع باكٍ، يلحق موجتك الهاربة بفيض عبرات المفارق.

لقد خذلت نشيد جبالي، واعتراها غيب هربي وما زلت أسمع عواء سفوحها يهيج كلما عانقته رياح ذكراي، وطلبت رملك الأخاذ الذي يخاتلني مخادعاً تماماً كما هو عهده بالانسياب من بين الأصابع

يخنقنا حر وجع العبرات والذكرى، ويخنقني أكثر وجع الهتاف، ويستلذ بوجعي الخرس وقد أخذ منك كلماتك التي عهدتها لدربي نجاة.

أمسح دموعك التي تطفئ لهيب خديك، وتبعث في حريق روحي ذرات الرّماد الناتج من لهيبنا؛ فيعمي أعواماً عشناها هانئين.

كنا نطالع بأعيننا كبر البنين، وأتحاشى نظراتهم المحدقة فيّ، وقد سلبتك منهم وأنتِ معلمتهم الحب والحياة قبل العلم والسمو سهرنا لياليَ في خلوة الدار ونسينا لياليهم وهم يهربون من باصات الأجرة التي لم ترَ منهم سوى كلمة "معك نازل "وغبار هروبهم.

تعانقين عيني النادمة وكأنك تضيفين:

- لقد جففت منابع الحب التي يرتوون منها، وجف معها عطائي حتى لحق الجفاف بجيوبهم التي صار يطويها الغبار جفت أرواحهم من سنوية المولد في (جامع العيدروس)[1]، وأنت تنهرين انحرافي وسماحي لهم ببدع الدين فجررت أقدامهم إلى دكاكاين ينشط فيها كُتّاب القدر الذي طعن جمعنا.

- كانت عصرية الشاطئ تجمعهم بالرياضة والنشاط، وغروب الجمال يرسم في أعينهم شفق المحبة الواسع لكل من في طريقه فعكرت صفوهم بمقيل القات والساعة السليمانية التي تجعل غروبهم تلعب به شياطين الظنون، ويكثر في حدائقهم كهولة الوحدة والضيق.

---

1. جامع العيدروس: من أقدم المساجد في مدينة عدن، ويقع في مديرية الشيخ عثمان. ويُنسب لأحد مشايخ الطّرق الصوفية؛ الشيخ (العيدروس).

وكعهدي بتربيتي الجبلية الجافة ألجمت فمك بيدي، أهرب من اعوجاج تسلطي وقد ضربت جيوشه رأسي بذات العصا.

- إيه يا بنت الموج؛ لقد فررت من شتاء جبالي لأسكن بدفء تفاصيلك، هربت لاجئاً من إرث التاريخ ذي التفاصيل الموجعة، وهأنا طريد حبك وشياطين الحياة تلاحقني وتجرعني شرور الهتاف، وتُقرِنُني كل حين ألواح السواد.

إيه يا وجعي؛ لم أستحضر يوماً من عاث بترائبك أو أغار منه، لقد أنساني دلالك كل العابثين، لكني اليوم لن أسمح لعابث آخر بأخذك مني.

وكأنك تنبهين فحولتي الطافحة بقولك:

- لقد انكسر الكثير أمام اعوجاج تملكهم إياي، وانتصاب قوامتهم عليّ فلا تلحق بخاسرين غير متحسر عليهم.

تلهبين تملكي بأن الحب الجبري وشوق الغاصب هما اللذان جعلاني أعلوك، وأسكن موسيقى الهناء التي خلدت فيه أعوامي الهاربة التي هنأت من عناق أمواجك الدافئة لشاطئي الجاف؛ المليء بشروخ الحرمان.

أتماسك بما بقي من ذكورتي، وأستجمع عطفك، علّ مفتاحه يدير للبقاء وجهاً:

- لم يكن ذنبي أني استخلصت من رحيقك الشبق قطرة، قبل ضموره الحتمي بفعل دوران الفصول، استحللت مفاتنك ونعيمك وكان لي في إرث الشرع حِل، لم أدرك أناي المتملكة لك يوما سوداء إلا حين أسكتت الفاجعة حبال صوتك، وهَأنتِ تجلدين المجلود بسياط صمتك وصار أبناؤك يتحججون بلوح القدر ويهتفون لسواده وأنت صامتة.

أنتِ ملك لي؛ ارتضته سلطة الحياة فانطقي يا بنت الموج (الساكت عن الحق شيطان أخرس).

تغمضين عينيك الذاويتين بفعل تضارب دموعها، وتشيحين بوجهك عني، ترتعد مفاتنك

الضامرة ونحن في عمق دفئنا وفراشنا فصرت على يقين أنك تفتقدين أثري، انسحبت من فرش الشرعية وأتحامل على النافذة كي تصد هتاف القدر.

أدمع وأنا أطالع الهاتفين تتعرق جباههم جهاداً لنصرة القدر؛ ويحملون ألواحه؛ مستحضراً قرار إيمانك بحلول اللعنة.

أجدني معلقاً على نحرك، أشتهيه ولا حول لشهيتي تلك، أجلد مائة جلدة كل حين وأنا أرقب دموعك التي يُمطرها بنوك الجلادون.

لحظة؛ يسترق منك النعاس وسنه فأهيم حافياً كما أتيت على ترائبك التي لم تعد لي، وأعرق في بسمة أجتهد حتى أقف على هلاكي في رسمها.

أخربش جدائلك فتطير من شقوقها غرابين سود، أغيب في مشنقتي وأنا أجاهد بفتح؛ متنفساً لنسيمك الشافي، علّه يعيد لحياتي نداها كما كان عهده، فيتحول أريجه دخاناً يزيد اختناقي، ويدنيني من مصرعي.

أنشد خيوط الصباح المتدفقة من وجه البحر فتحرقني لججها الشاطئ باكٍ وسفح هروبي يُعِدُّ نعشه الأسود، أشهق شهقتي الأخيرة، ومفاتيح سلطتي تُنزع من يدينا عنوةً ببطش من كنت أحسبهم صبياناً يوماً تستيقظين أنت من شدة البطشة تلك، ونفضّ تشابك أيدينا بأوامر الألواح وسلطة الهتاف.

كان الوداع تنوح تراتيله؛ وشمس أيّار تعيد ذكرى اللقاء، ولكن بهتاف ألواح القدر.

مايو 2014م

عرس السـماء

تتعالى ولولاتها على سور الليل الأسحم، وتبلل كل خمس دقائق قطعة القماش، وتضعها على رأسه الذي يدور بداخله صراعٌ ضارٍ مع الحمّى، التي تعالت بتأنٍّ عبر مفاصله حتى سكنت دماغه الأشهر التي تسلقتها الحمّى بهدوء كانت تضطرم بسعيرها عند الأم الضعيفة، أحد أشهر التسلق كانت عند محل الذهب لبيع آخر جرامات كانت تتدلى من أذنيها، فشد انتباهها ضحكة بلاستيكية من شابة تحتضن عضد شاب وسيم، وهو يفرش على صدر غانيته الذهب.

انتقدت ثمن قروط أذنيها، وأسبلت خطواتها تقرع باب عيادة طبيب الأطفال؛ لتحمل بجوار ابنها ما يفوق وزنه من عبوات دواء، تحمل ختم "اتحاد الصيادلة العرب" بلون ظاهر، وزهو بالغ.

في شهر التسلق الخامس وضعت أواني الطبخ بين يدي صاحب الصوت الأجش "مالك الحراج"، وحتى سلسلة مفاتيح البيت كان سعرها ثلاثون ريالاً، لتعود بمبلغ سبعمائة ريال، وتضعه بين يدي "صندوق الاستعلامات وقطع السندات"، الذي هو أجمل تأثيثاً من غرفة الطبيب ليرد عليها الموظف:

- سند المعاينة بألف ريال

ترفع بصرها إليه، وتكتب أحرف الاستعطاف:

- لا أملك سوى سبعمائة ريال

- اذهبي إلى مستشفى حكومي السند بـأربعمائة ريال

تلف قدميها وقلبها بحياء وألم؛ خارجة من باب العيادة إلى المستشفى الحكومي وعلى بابه يستعجل أملها لحظة الشفاء، تدخل مسرعة من بابه الصدئ، وتصعد الدرج المثلمة وأمامها تقبع غرفة السندات بطلائها الناصع على غير عادة الجدران المجاورة التي تساقط معجونها، وامتلأت بأخاديد محفورة بذكريات الزائرين وهم يقسمون أن يتركوا ذكرى على الأقل عوضاً عن تذاكر المعاينة ورسوم الصيدليات "ذكراهم للأوجاع القادمة ليس إلا".

- لا يهم طلاء الجدار إذا كان بأيديهم طلاء الروح التي تعبث بها الأمراض هكذا ترد على طواف عينيها في أروقة المستشفى الحكومي السند صار بيديها وبجواره ثلاثمائة ريال المتبقية لها.

دلف الليل على انتظارها في الطابور الطويل أمام غرفة طبيب الأطفال، وفتحت المآذن أبواب الغروب، ففتح الطبيب المناوب باب غرفته يحمل حقيبته، وعينا الأم تنظر إليه تستعطفه، إذ حان دورها في الدخول، فيرد عليها:

- أنا مغلّق عيادتي، والآن انتهى دوامي

ومثله الأطباء في الغرف المجاورة ينتظرون صلاة الهروب؛ بينما الأم تحمل طفلها وتجأر لصلاة الشفاء أن يصدح أذانها.

تذكرت الأم أن هناك طبيباً جديداً سكن الحارة بجوار بيتها، فهرعت إلى عيادته؛ لتخونها رجلاها إلى شقة ليست بعيادة الطبيب، فتقع عيناها على صاحبة الضحكة البلاستيكية في معرض الذهب، وهي تدفع الشاب الوسيم وتمانعه من أن يوقظ عقد اللؤلؤ المسترخي فوق صدرها بأنفاسه الحارة.

تغض الأم بصرها باتجاه طفلها وأزيز صوته، وحركة يديه تدفعان الحمّى الضارية، وتطبق على عينيه خيوط الموت الرمادية.

تجر الأم خطاها حتى تسلك الطريق المؤدية إلى عيادة الطبيب طلبت من موظف

الاستعلامات أن يخبر الطبيب أنها جارته أم الطفل السقيم؛ فيرجع إليها الخبر بعد حين أن (الدكتور) ليس موجوداً في العيادة.

على كرسي الانتظار، ترسم خطوات الطبيب، تتابع لتنقذ الطفل، وتنتصر لدفاعه عن أنفاس الحياة، فتقدم خطوات بأربعة أقدام، وعينا صاحبة الضحكة البلاستيكية هلعتان، وأصابعها مخضبة بدماء ما زالت دافئة.

يوضع على فتحة الاستعلامات دفتر الحساب البنكي، فيأخذه موظف الاستعلامات ويدخل غرفة الطبيب، وتحمل الفتاة على سرير متحرك بسرعة فترى الأم الطبيب على كرسي المعاينة وكأنه منذ الأزل.

تهرع وتناديه فيغلق شق الباب في وجهها، ويخبرها:

- هذه ستدفع مقابل جراحة لا تتجاوز ربع ساعة؛ ألفاً ومائتيْ دولار.

حملتها قدماها إلى البيت؛ لتغلق بابه، وهي تقسم أن لا تفتحه إلا ليوم زفاف وليدها.

خرجت صاحبة الضحكة البلاستيكية بغشاء بكارة جديد، منتظرة موعد عرسها قبل أن ترجع إلى الطبيب وتدفع ألفاً ومائتيْ دولار مرة أخرى.

وعلى عتبة الشهر السابع من شهور تسلق الحمّى الضارية للطفل خلف الباب المغلق، كان موعد إزالة خيط البكارة الرابع يومها، لم تدرك الفتاةُ الطبيبَ في العيادة فجاءت بسيارة العرس المحتفية بليلة الزفاف إلى بيت الطبيب في حي الجارة الموصد بابُها طُرق الباب وهتف أبو العروس:

- العروس تعاني من التهاب في أذنها وتحتاج معاينتك

لتدخل المنزل، ويطلب الطبيب من والدها أن يجلب الدواء فيما هو ينزع الخيط النائم في البكارة بسلام قبل أن يرجع.

فتضع بين يديه ألفاً ومائتيْ دولار وتتعهد له أن تجد البديلات عنها كي لا توحشه أوراق الشيكات.

تخرج العروس على أضواء الألعاب النارية وأهازيج (المحاجر) إلى سيارة العرس باتجاه بيت العريس حينها فُتح باب الأم المغلق تحمل بين ذراعيها جسد طفلها الذي فارقته الحمّى والروح سوية، وتعانق عينيْها المغرورقتين عينا "صاحبة الضحكة البلاستيكية" تُزفُّ إلى سيارة العريس.

وتترجل الأم ببطء تحمل طفلها إلى سرير عرسه، وترسل السماء أضواء نجومها لتضيء الروح الغضة في تلك الليلة الماطرة.

حزيران 2010م

ظهر تشـيخـوف

لقد رأيته؛ نعم رأيته والأضواء تتناوش الظلام القاتم على خشبة المسرح، تلحق الظلام حيناً في بقعة ما؛ فيسود بقاع يضطرب الضوء بعصبيّة إلى بقاع يمسحها فتزداد شقاوتها حينما ترى حالها بعض الوقت في الضياء يهتز أكثر ولا أرى عصبيته هذه المرة إلا عصبية الخائف.

على بقاع الضوء أشخاص يعضون شفاههم، ويقبضون على سوقها وتقرفص، فيضطرب الضوء بحدية؛ ويمتد الظلام لم أكن على يقين حينها وأنا أقف في زاوية خشبة المسرح؛ أن الضوء هو الذي يلاحق الظلام بدوائره القلقة؛ أم أن الظلام هو الغالب الذي يدحر الضوء ويحصره في ضيق كرته البيضاء لست أعلم – صدقوني- أيهما له الغلبة بهذا الشأن!!

غير أن ما أعلمه هو أني رأيته فعلاً.

كان هناك ينظر الشخوص العاضّة شفاهها، ويلقنهم بعد إسدال الستار طقوس الفصل الثاني من "بستان الكرز" وتخميش وجوههم وصدورهم، وخيط نظارته يتدلى على وجهه المصفرّ، فينفّذ الأشخاص الطقوس الصامتة إلا من عطش أعين الجمهور تسرق شفق المشاهد المحمرة وتلامس رموشهم لجة الشفق، وبالتحديد شواطئ أعينهم فيزيد كرة الضوء حصاراً.. ربما صرت الآن أعلم.

(يهز رفاقي رؤوسهم وهم يتطلعون في أصابعهم بعد أن مسحوا بها رموشهم).

رأيته حينما كشفته دائرة الضوء وهو يتطلع إلى ورقة نقود فيلتقطها بخفة طفل في

الخامسةَ عشرةَ من عمره ويسعد بها، وقد سقط معه خيط نظارته الشهير، يهم بالتقاط ورقة النقود لأن سيدته الزجاجية – نظارته- تتمنى لمسة حرير تهدهد شمس الأربعين، وتزيح ما علق بها من أوراق الخريف، ولعل لها أمنية أخرى أن تغسل أسطحها من شقاء أحرف طردت هناءها.

لقد رأيته يا رفاق وما زال ينتظر الرياح أن تُلقي بين قدميه هديتها الثانية، فرفع رأسه إليّ وقد انفجرت كرة الضوء في قبضة الظلام، فاضطرب خيط نظارته على أخاديد وجهه وهو يقول لي: "منذ أربعين سنة عندما كنت في الخامسةَ عشرةَ عثرت على ورقة مالية من فئة عشرة روبلات، ومنذ ذلك اليوم لم أرفع وجهي عن الأرض أبداً وأستطيع أن أعدّ حصيلة حياتي كما يفعل أصحاب الملايين فأجدها: 260 دبوس، 50 زر قميص، 300 غطاء مشروب "الويسكي" وظهر منحنٍ وحياة بائسة".

تلك رؤيتي للمسرحي والروائي العالمي/أنطوان تشيخوف ونحن نحتفي بذكراه في مشرحة السرد.

نيسان 2011م

حلوى الشعوبية

يحد صوته ويرفعه:

"أهل الرضاء والقبول هم أهل الأيمان أهل الرضاء، هم أهل قيام الليل والذكر والاستغفار".

حينها كنتُ قادماً من منزلي لحضور صلاة الجمعة، فسمعت قرع قدمي جارة الخطيب الصارخ في منبره (رضا)، ما زالت تحمل على رأسها (صحون الشعوبية)، وقد وزعتها على بقالات الحارة وفي يديها أوراق متهالكة ثمن شعوبية يوم أمس.

رضا لا تصلّي، ولا تقوم الليل، أمية لا تقرأ القرآن لكن تحت ظل صحون شعوبيتها يستظل أربعة أرواح، هم تركة جبر؛ زوجها الذي كسر إطار حلمها بوقع حمله الثقيل على بروازها الجميل.

فجراً توزع صحونها بانتظار شمس تعكس ظل رزق أطفالها ومنذ منتصف النهار وحتى قرب أصيل الليل؛ تجمع ظلّاً فاتت شمسه أحرقتني حدة خطواتها الحنقة من ظل الجمعة الذي بين يديها؛ وهي تعدها ولا تكاد تبلغ مائة وخمسين ريالاً؛ لا تكاد تشبع فرداً من بنيها المتضاغين جوعاً، تُعرض بوجهها عن صوت الخطيب، وتتلاشى كلماته في أذنيها بتباعدها عن المسجد.

- أما أنا في المسجد فلم تهدأ روحي عن تساؤلها:

أما تستحق رضا الرضوان من الله أولن تكون رضا سعيدة عنده وقد شَقِيَتْ في دنياها؟

خرجت الأرواح من المسجد وقد دخلت تنشد الراحة، أما روحي فما زالت في شقائها حائرة تتلمس لـــــ(رضا) سبيلاً للرضاء والسعادة.

جرَرْت روحي المثقلة من باب المسجد حتى خارجَه، وعلى مرآة سيارة الخطيب الفخمة ندّت ابتسامة من وجهي المهموم؛ وقد تسللت إلى روحي خيوط ارتياح وعرفت لمن تكون السعادة والرضا وما زالت عيني تتنقل بين مرايا سيارة الخطيب وخطوات رضا الحَنِقة التي لم ولن تجفّ.

مارس 2013م

نصف تحليقة

الحي حزين، والشارع يسكنه الخواء والصمت، والناس نائمون ابتداءً من ساعات الصباح الأولى، فقد قلبوا ليلهم سهراً لكي يروا موتهم ولا يأخذهم بغتة، أما النهار فقد صار مناماً لمن سلم من غارة الليلة الماضية، وفي انتظار موت مرتقب في مساء قادم وهاهي محركات السماء تعوي جائعة وجفت أيادي قائديها أو رحلوا ذات مساء إثر غارة.

فقط هي حمائم الدور الفزعة، التي سلِمت من طائرة المساء، الآن الحمائم تؤنس الحي بهديلها، ترفرف فوق أحد الأزقة وتطالع أطفال الحي الذين يتحدّوْن صمت الخوف بلعبة (الغميضة).

كان (سلاّم) يبحث عن (أريج) في أحد أزقة اختبائها، والحمامة تقف على الجدران التي تختبئ وراءها أريج.

بطبيعتها؛ تستشعر الحمائم الخطر، فحاولت برفة جناح تنبيه أريج إلى قصف صاروخي يفاجئ الحي باكراً لم يمهل الصاروخ تنبيه الحمامة فسقط على رأس أريج بنصف تحليقة.

الحي استحال صمته أنيناً وموتاً، وما زال سلاّم يبحث عن مكان اختباء أريج.

نيسان/ 2015م

عرض مسرحي محموم

كانت الحمّى ترعد جسدي؛ وتبرق آثارها وجعاً في كل أطرافي، وأنا أرى دخان الموت يصعد بأرواح بريئة، تبكي في وجه الشمس الشاحب، أنقاض ودخان ونار، أصوات مدافع تعقبها أنّات ضعيفة، لم تقوَ بعْدُ على إسكات هدير الحرب تلك.

تجمعت حمّى وآلام جسمي كلها في راحة يدي، فصارت مظلة تغطي سوأة الأبرياء المكشوفة أمام قصف المدافع العمياء، وأصابعي لا تكف عن رد قذائف المدفعيات والدبابات، أما طلقات البندقية الفردية فقد تكفلت بها أظافر يدي تماماً.

كان الصاروخ يكظم غيضه داخل راحة يدي؛ فيتنفس إيذاناً بموته دخاناً عبر فراغات أصابعي، ثم لا أكلف نفسي عِبْءَ رمي فتات هيكله المتحطم في قبضتي، بل أضعه بين يدي أطفال (القوارير) ليبيعونه خردة في معامل إعادة التدوير إن كان ينفع لذلك.

تمتد أصابع يديّ؛ التي جعلتها هذا المساء سقفاً لمهمّشي تعز، لأحميهم من غارة عمياء، تقضي على شمس أحلامهم بيوم جديد من أيام الحاجة والطلب؛ حتى تصل لضفاف ميناء عدن وتستظل شطآن (القلوعة) تحت أصبع، أما أصبعي الوسطى فقد استطاعت بحكم طولها أن تصل إلى قمة (جبل حديد)، فكنت أضرب بها جنود الموت فيطيرون في السماء بسرعة صاروخية، أراهم الآن يمرون من فوق راحة يدي في تعز و (إب؛ الجنة الحاضرة)؛ حتى يرتطمون بسقف كهف من كهوفهم التي خرجوا منها؛ فيتقيئون هناك بين يدي سيدهم حبراً أسودَ وأوراقاً مهترئةً، ويسعى لإيقافهم ولكنهم لم يستجيبوا له ولم يرددوا الصرخة، بل اقتادوه إلى مكان تجمعوا فيه جميعهم.

أحد أولئك الذين تناولتهم إصبعي الوسطى كان يطير في الفضاء وقد تعرى نصفه الأسفل لزخم الهواء؛ ولأنه يلبس ثوباً ذا قطعة واحدة، وانقطع حزامه ليصل بين يدي أمه عارياً فضمته بين يديها بشوق، وعمدت إلى قدر ماء وغسلته من لوثاته ومراهقاته، وما زال لم يكمل ربيعه الثاني عشر.

أصبعي الإبهام كانت تغترف من شط ميناء عدن ماءً مالحاً، ورملاً تدسه في فم المدفعية التي تقصف بيوت الآمنين في (المعلا وكريتر).

وبأصبعي السبابة كنت أعقد أفواه الدبابات فتنفجر الدبابة غيظاً كضفدعة سمينة بلهاء، تُضْحك أطفال (الحافات) العدنية في الخور والقلوعة.

تحركت يدي بخفة لا متناهية؛ فقد كانت تأخذ أطناناً من رمل شبوة ومأرب وأطراف البيضاء وتدفن بها المتصارعين هناك، لكي يسلم منهم البسطاء والمؤمنون الدّاعون الله حياةً آمنةً وكفافاً

صالت يدي وجالت بالأمن والحياة، فانتصبت كطودٍ عظيم في حدود اليمن الشمالية، وصفعت أطفال مران المراهقين حتى عادوا إلى رشدهم، فهتفوا بين يدي سيدهم وجذبوه إلى (ميدان التحرير) بصنعاء، ليلقي خطاباً في حملة انتخابية تنافسية؛ كان أحد المرشحين فيها لرئاسة الجمهورية.

حَمَتْ يدي صوتَ الحرية ذاك، فجعلت أياماً للحملة الانتخابية النزيهة، وأياماً أُخَرَ للاقتراع، وحتى أيام الفرز كانت وما زالت تُظل صنعاء، وتهوي كمطرقات ضخمة على رؤوس من يهمّون بتزوير صوت واحد أعلنت النتيجة بفوز مرشح البسطاء؛ من جعلوا شعارهم "كفافا" بالجولة الأولى، فلاحظت أصابعي بقية المتنافسين الذين كانوا بعددها تماماً ذلك الأصلع يهرش رأسه بعنف، ويعود إلى ربته الجارة، ليكمل ما بقي له من العمر فيطوف ويحج بسلام وفتى مران يخطب في أنصاره بحركات يديه ومط شفتيه المعهودتين مسلِّماً بالنتيجة ويعود ليزرع الرمان ويسقي حقول البطيخ بأمان

أما المرشح الطامح بالعودة؛ فعاد لمنزله ليرقد بعد حرب طويلة كان نتاجُها تسليماً وما زال يتمتم "حاربي وارقدي"، ومرشح الماسحين لحاهم عاد يدعو إلى الله بقلب تائب وفؤاد نادم ويحرّم السياسة

لم تَكِلّ يدي من التحليق ونشيد السلام، حتى تحسست بضخامتها المحلقة جبيني الذي يتوقد ناراً لحمّى تنهش حلمي ما زلتُ في الحمّى الهستيرية تلك؛ حتى هزت غارة جديدة بيتي في صنعاء، ففتحت التلفاز ليَصدِم يقظتي صوتُ جارتي العدنية تبكي أطفالها الأربعة؛ الذين قضوا في قصف مدفعي لمنزلهم في مدينتي كريتر (عدن الصغرى)

أيّار/ 2015م

حضـرمـوت

عصراً كان الأطفال يفرقعون ألعاباً نارية في مكان الجلوس ويغنون (سنة حلوة يا جميل) ابتهاجاً بعيد ميلاد أخيهم الخامس

بينما كان يجلس مديراً مفتاح المذياع بعصبية، يتنقل بين قنوات إذاعية؛ وهو العارف بمواعيد النشرات والفوارق بين كل محطة وأخرى وما إن تجود الكهرباء العمومية بوميض مسروق من قبضة العتمة حتى يلصق عينيه بالتلفاز.

قصف هنا، دمار هناك وموت بالمجان إلى حدّ أن القطط والكلاب تأكل من جثث القتلى بهستيريا تجعل من عنقه محور ارتكاز لا يكاد يتزن، ينتقل مفجوعاً بين أسماء محافظات الوطن: عدن، تعز، الضالع، صنعاء، إب، البيضاء، شبوة، مأرب، ذمار، الحديدة، صعدة، لحج، حجة، ويصعق بالمحافظة الأخيرة والمذيع العربي يتلكأ باسمها فينطقها (حضر موت) ويفرق بين جزئي الكلمة المركبة، ويحرك أحرفها الساكنة الكل ينوح أمام ناظريه يخال كل محافظات وطنه أمهات نائحات منهن من تنوح بنيها وأخرى زوجها وحفيدها وراعي قوتها لم يفرق الموت بين طفل هشة عظامه لا تقوى على كف الموت المتصيدة ولا فتاة أو شاب.

تنطفئ الكهرباء فيغرق في العتمة المجالية والنفسية والواقعية يخرج من غرفة التلفاز إلى غرفة نومه عبر الصالة التي كان يتخبط بها في عتمة مستميتة، فيجد أيدٍ تتشبث بقدميه الواهنتين أيْدٍ لجرحى ما زالوا يطمعون في حياة، ويغرق إلى ركبتيه في دماء القتلى الغارقين في سؤال موتهم الذي لم يُخبروه.

فَقَدَ تماسُكه تماماً صارخاً وهو يسمع خشخشة عظام جمجمة طفل لم يكمل حوله الأول تحت قدميه ليهتز البيت جرّاء صرخته المُرْعبة؛ فغابت أهازيج الأطفال المبتهجة بعيد ميلاد أخيهم في زحمة أصوات الموت المتناسلة هلعاً يبارح الصالة الغارقة بالموتى والجرحى الهاربين من موت يترصدهم.

تلمس أخيراً باب غرفة النوم لاعقاً عرق النجاة وما تزال الوشوشة المتداخلة تعصف بداخله.

المذياع يحصي عدد قتلىً وجرحىً ومشردينَ والتلفاز يدقق في لحظات الموتى قبل صرختهم الأخيرة، ويعارك مع المنقذين أوصالاً متقطعةً لضحايا منتشلين عانقوا الموت وهم نائمون وآخرون في خور مكسر وجدت فيهم النار فريستها السهلة، فلم تنز من أجسادهم دهون الراحة والنعيم فتكبح جماح لهيبها.

فقط كانت لحظة واختفت من أذنيه تداخلات الوشوشة تلك، وقد طردها صوت انفجار في مجلس الأطفال الذي كان مبتهجاً قبل لحظات يصعق صارخاً ومُوَلْوِلاً بهستيريا طاغية، مغادراً عتبة غرفة النوم التي لم يتخطاها بعد؛ ومرتطماً بباب الخروج نافذاً بجلده إلى الشارع وقد صرخ بداخله صوت الحياة، ويهذي في الشارع:

-صاروخ، قذيفة، قصف أولادي زوجتي مووت، الصالة ويفرق بيديه أيادي أطفاله الخمسة وهم يتشبثون بقدميه يتجمهر الناس حوله ويحوقلون بانتظار أدوارهم في الصراخ في الشوارع يدخل بعض المتجمهرين إلى منزله، فيجدون الأطفال الخمسة يخرجون من مجلس عيد الميلاد؛ يبكون بحزن على بالوناتهم الخمس التي قررت أن تنفجر دفعة واحدة.

مقـهـى الحـيـاة

كأن ينفجر الصاروخ الأول أمام عينيك في صورة تحطم (الفنتازيا) المطلوبة لسارد، ويليه الثاني.

فقط بضعة عشرات الأمتار بين الراوي والمشهد يمر هذا المقطع كفاصل مزعج لفيلم ملهوفة شغاف متابعيه، حينها تهتز أكتاف المستديرين حول طاولات المقهى استنكاراً لهذا العطب المعكر.

تستمر هدايا السماء، عشرات الانفجارات تطوق الجهات الخمس، فالراوي هنا يعلم الجهة الخامسة؛ جهة الموت الأولى منذ سفر التكوين هي سقف الجهات الأربع، ومنها تتدلى أيادي الموت كما يراها السارد الآن وقد اختطفت بعض رواد المقهى لا يلتفت لتلك الأيادي أحد غير عيني السارد الذي تفارق قلمه الآن؛ وهو يصول ذات اليمين وذات الشمال، ويهادن إيادِيَ تمتدّ.

كان السارد يقابل وحدتي في طاولة جلوسي بأحد ممرات المقهى الجانبية، وأنا في ساعة تأملي اليومية على فوح شجرة الليل العاطرة؛ بينما هو مشغول باهتزاز كأس القهوة أمامي، وبعين السارد النبيه يعد مسامات رغوة الكابتشينو وذرات البارود الصدِئِ تنغرس فيها.

يسدل الليل سترته السوداء في ليلة غاب عنها بوح القمر كمداً، وما يزال المقهى ينضح بالهمسات والضحكات والموت أتأمل رواده متعددي الفئات العمرية من الجنسين؛ وقد انتصف الليل وأضواء السماء تخطف الأبصار حين ارتطامها على رؤوس فرائسها الناعسين، وما يزال مقهى الحياة دافئاً.

تشرين أول/ 2015م

لعب طردي

هذا الصباح تظهر الشمس على أطفال مدينتي وهم يتسابقون بالعدّ والرهان للعبتهم الجديدة.

عمر، غالب وعلي، يتقدمون السباق ويحصلون على العدد 2028 و2015 و2047، هذا هو الفارق الطفيف بين الأقران الثلاثة لكن المفارقة أن أقل الأطفال جمعاً قد حصل على 1436 عبوة رصاصة فارغة.

يجمعون في المساء العدد النهائي لسباقهم، فتمتلئ الأزقة بصرير تلك اللعبة.

من بين اللاعبين وسيم (ابن طبيب الإغاثة في المدينة) الذي عاجلته رصاصة هاهي عبوتها الفارغة بيده الآن مع فرحة وسيم بزيادة عدده في اللعب حل الظلام مجللاً بصرخات أمه حال وداع مهيب للأب.

وكل صباح تفتح الشمس أبوابه، يزداد عدد ما يجمعه الأطفال من عبوات الرصاص الفارغة، وحين المساء تفر الشمس من وجع النائحات ويتناقص أفراد مدينتي.

إذا أومأ إليكم الحب فاتبعوه، وإن كان وعر المسالك، زلق المنحدر

وإذا بسط عليكم جناحه فأسلموا له القياد؛ وإن جرحكم سيفه المستور بين قوادمه

وإذا حدثكم فصدقوه، وإن كان لصوته أن يعصف بأحلامكم كما تعصف ريح الشمال بالبستان

قيـامــة

تعشقني حد الطوح بي لا تمل رؤيتي ومداعبتي، وبمغازلة رشيقة من سحاب الحياء يهرع النهار إلى حتفه سريعاً نتعلق بأذيال اللحظة فيداهمنا الغروب، تنعكس تناهيد الشوق لوعة تتبدى بشفق محمرّ.

تعارك القيد فتنفلت منه فيزهو الشفق فرحاً بعودتها أسرق نشوتي من كف الغياب وأنتظرها.

هاهي تنهض عنقائي ملتاعة لا تفكر بسواي وتشرق بعد هنيهة غروب.

تصفعها يد السماء:

- أيتها البلهاء أما تعلمين معنى مغامرات عشقك؟!

تطرق مكسورة؛ فيختنق الشفق محتضراً.

- ويأتي نداء السماء مجلجلاً قويّاً كما صفعته:

- طلوعك أيتها الشمس من المغرب قيام للساعة.

شاطئ الشمس

جسدها المغري يقف كل صباح أمام المرآة؛ ليرتب قوامه الفتان، وليس سوى الحقيبة يحترق بنيران تلك الفتنة.

الوقت منتصف النهار، وحقيبتها اليدوية تتحرك مرهقة على خاصرتها ذهاباً وإياباً؛ فتتكاثف جزيئات الشحنة المتولدة مع الاحتكاك، لا بفعل النظرية العلمية، ولكن بفعل جاذبية الجسد المغري والحقيبة المرهقة تغدو الحقيبة هاربة من ملمس مثير، وترجع شوقاً لفراق لم ينته بعد.

بعد دوام يومٍ مرهق ما زال غصنها مغرياً بكسله، مترنحاً بخمول شهي، تصعد أخيراً إلى الباص وتريح الحقيبة من عقوبة الاحتراق بالحركة.

ولحظة ملمسها لجسد الباص تتنقل شحنات الحركة إلى كل راكب في الباص؛ فتحدث صعقة فالْتفاتة نحوها تجلس على كرسي منفرد، فتكتظ أنفاس المسافات على كراسي الباص حولها يدخل راكب ما زال يحمل روحه الجامعية بين يديه، يجلس على طرف الكرسي الذي يسع ثلاثة ركاب بينما تجلس هي على طرفه الآخر تنظر في وجهه لحظة دخوله، فتحمله حزمة شحنات من بريق عينيها.

رائحة عطره حركت أمواجها الثائرة، فرأت فيه بحراً ولدت على شاطئه شمسها، قوست ذراعها اليمنى كالرمز الحسابي أصغر<، وقوس هو ذراعه اليسرى كرمز أكبر >

(> و<) أكبر وأصغر هو الرمز الفلسفي في مخيلتها ليدي العروسين حين يمرا معاً متعانقي الأرواح.

ما زالت سابحة بخيالها على شاطئ سحره تقرب يدها، ويقرب هو يده.

تراه بحراً يعالج أمواجها العاتية بغرور، فيبتلع ثورتها بسكونه هائجة هي حتى تصل إلى شاطئه فتفرغ ثورتها في تقبيل كل ذرة رمل خلقت شمسها.

لحظة سباحة صامتة تناوشتها الرغبات عمراً منذ أن رأت أنوثتها على مرآة الصباح، وبكى فيها شوقها دهراً أفل بحرقة وانتظار.

فجأة وجدت نفسها تقطع السباحة في البحر ذاك، وتلهث باحثة عما يستر سَوْأَةَ خيالها عندما وقف الباص لراكب؛ لم يتبقَّ كرسي يجلس عليه، إلا أن يقترب البحر مداً نحوها، فتفر هي بموجاتها جزراً، وهي تثور قائلة:

- لو سمحت لا تقترب، سأدفع ثمن الراكب الثالث، وتضع حقيبتها بينهما.

كانون الأول/ 2013م

امرأة الفصول

أغمضت عينيها بهدوء غير مبالية بضوء القمر الساطع من مكان ما، تمرر يديها حول جدائل غروره، وتمسح بتيهٍ على أطراف أنوثتها العذراء، وتهز أجزاء سريرها المصنوع من أعواد الانطواء والخلوة لم تأبه للسنونو وهو ينقر شباكها، ويموسقه بنسق متسارع وكأنه ينبهها لقادمٍ ما كوخها معلق على حبال الطبيعة البكر، وله سلالم لم تطأها قدم، فاختبرتُ تحمل السلالم كأول قدم تطأ المكان، وعلى حافتي السلالم أذبت ثلوج الخلوة، فقد كان الفصل القادم في كفي صيف.

نادمنا الليالي، وآنسنا السهر، يرى كل واحد منا عود عمره الحزين، هبت رياح عاتية قلّبت صفحات الشقاء، فالبحر وفيٌّ لما يحمل لولا رياح الشقاء حين تهب فتثيره فيتنكر ويبتلع ما عليه، وكانت هي كذلك؛ فلولا الأنسام التي هبت بمقدمي لما ثارت مواجعها.

تقاربت سحب الزمان المتفرقة وتكومت، فأرعدت من لحظتها، وكذلك رتلت تنهداتها تترى كنا نجمع فصول العمر التي تفرقت، ونغسل غبار الحرمان بدمع السماء تقلبنا على آمال وأوجاع كما هو حال الفصل صيفاً شمس بالنهار تبعث براكين الحب واللهفة لملاذ، ومساء ممطر حزين.

حزن ما؛ أغرانا بالبكاء على حافة مساء ممطر أقسمنا للقطرات أن نكون بعدها قد ارتوينا، وللمطر أن نكون بعده قد غسلنا غبار أوجاعنا، وأن نكسوا الكون خضرة وحياة.

ككل يوم نتفحص أوراق الحياة على أغصان البيلسان، وهي تخضر كما أيامنا، وعلى مقربة من حافة الصيف امتلأت بيوت النحل عسلاً فلعقنا بلسان وأربع شفاه، وأوشك الصيف أن يرحل، والفصل أن يدور عندما بكت سحائبه مودعة أرض الجدب.

دارت دائرة فصل اللقاء والبكاء، وانتهى ذات لحظة وداع.

على باب الكوخ الدافئ قالت:

- لن أقف عائقاً أمام فرصة انطلاقك.

وعلى مقربة من شجرة البيلسان التي أخضرت بأبصارنا وأورقت تعانقنا، ودعتني عند محطة الخريف القادمة.

كنتِ تنتظرين مقدمي، وكان السنونو يساعدك على فض جلباب وحشتك تلك، ولكن الليل طال وما تجلى نهاره إلا على أوراق الحياة تتساقط من أكتاف البيلسان، فتزيدك سقوطاً في يد الوحشة التي تمتد إلى الكوخ وما جاوره، حتى ابتلعت تلك الوحشة تغاريد (القمري)[1] من أعلى أشجار الصنوبر؛ فيتساقط ريشه البديع مع أوراقها.

الخريف الفصل ذاك كم هو موحشٌ وقاسٍ؛ فقد تساقطت أوراق بسمتك إلى أسفل الكوخ عند أقدام السلالم، وجفت ويبست وصارت خبراً لدى رياح الغياب، وهبت على حافة الخريف رياح الشقاء من جديد فأسقطتِ مرآة قلبي فانكسرت؛ فزاد شقاؤك وكان آخر ما رأيتك في دورة فصل الخريف، وقدوم صقيع البُعد على حافة السلالم، حينها ذهبت إلى مركز المدينة لأشتري قلباً ومرآة جديدة.

في المدينة؛ الناس تكتنز الصوف، والثلج يستعرض تراكمه على انثناءات المعاطف، علمت حينها أنها دورة الشتاء؛ الفصل الأشد قسوة؛ فاكتنزت معطفاً، وكانت الأحلام الشقية تضاجع المساء تحت قسوة البرد، وأمست الأجساد تنشد رحمة معاطفها، فاستيقظ الصباح

---

1. القمري: نوع من أنواع الحمائم البرية، وله صوت شجي.

على عينين تبحثان عن الروح المنتظرة التي تكسرت على مرآة الرحيل عند محطة وداع (رقم 1).

ضاع منه طريق الرجوع إلى كوخ الانتظار، فجعل كف اليأس تعبث بأمنياتها بعودته، وكم ضاعت منه فرص الانطلاق؛ إلا إلى أزقة لا تنتهي من بصم قبلات على شفاه ورود، فعلم حينها أنه قد دارت دورة فصل الخريف، وهاهو الربيع بوروده، لكنها شفاه جافة خشنة لورود بلاستيكية لا روح فيها.

امتشق أعناق تلك الورود المدنيّة، لكنها تحوي في داخلها قضيباً معدنياً شديد الوخز والجرح، وتجيد التنقل من يدٍ لأخرى دون أن تذبل.

الآن يحنّ لزهرة لم تلمسها إلا يده، ربما ذبلت وهي تنتظر دفء أصابعه لتمحو صقيع الشتاء عندما ضاق به زقاق البلاستيك حزم أمتعة حنينه، وقرر العودة إلى كوخ الانتظار.

على مقربة منك سمعت قيثارة الشدو من أنغام السنونو، وخضرة هادئة تمتد على البساط وتحضن شرايين الماء الجارية، فقلت: هكذا يكون الربيع.

وعلى سفح الخضرة راعٍ يحاور أغنامه بشدو حزين، فترد عليه بجوقة جماعية كتراتيل كنائسية في يوم القُدّاس، فيرتد صداها مقتلعاً قلبي الطريد تنسل خطواتي إلى كوخ الانتظار على واحة الربيع؛ فتذبل الواحة الخضراء من وقع أقدامي، تنقطع آخر جوقات العصافير، يصمت خرير الجداول الباكية حول روحك.

أصعد سريعاً إلى كوخ الشوق؛ لأراك ممتدة على كرسي العتاب، أقترب من مشارف وجهك، وما زال بارداً بقسوة الشتاء الذي حفظ جسدك، فشق جسدَ الصمت صوتُ عصفور، رسمت مع صدى صوته قبلة على محطة الوداع (رقم 2)، وما زلتِ تمسكين بيدك مرآة قلبي التي تكسرت حين وقعتِ في كف الرحيل.

حملتك على آخر أيام دورة الفصول في كفن الربيع إلى سرداب أحزاني وأحرقتني تناهيد موجعة لخيانة انتظارك.

دفنت امرأة الفصول على حافة ربيع، وعدت إلى حافتي السلالم وأنا أصعد إلى الكوخ ودموعه الساخنة تذيب ثلج البعد، أسمع صوتاً ينادي:

"القبر باردٌ يا حبيبي أرسل لي قميصاً من الحب"، يردد صدى ذلك الصوت شدو مالك الحزين.

2010م

تلويحة لذاكرة الغروب

عشقي لذلك المشهد التراجيدي المهيب؛ يوازيه بنفس القدر من العشق حزن وفراق.

الفراق هنا متعدد الأوجه كأن تفارق حبيبة وقد تهالك قوامها الفتان وجافى حضنها الدفء مثلا أن يغشى حقول المزارعين ليلٌ لا يؤمن بالمشاعر والرباط المقدس بين المزارع وحقله؛ فيهتفون بالعودة أو أن تشاهد رقصات السهول الصفراء تتمايل مخففة من أحزان شمس الغروب؛ فتلم شعرها الأشقر لتخفيه، وتخفق بيد الوداع.

كل ذلك الكم من الحشر المهيب؛ توازيه نشوة القُبل حتى يحمر خدّ السماء بشفقٍ مبين، والسيارة ما زالت تنهب الطريق الغائرة في حضن تلك الواحة الحانية.

مع لوحة غروب الشمس أستحضر نشيدك المتجدد للغياب العبثي الذي لا نطيق دفع تكاليفه هنا سنابل القمح تتمايل منحنية أعناقها يمنة ويسرة وتموسق بحفيف شجي، فأخالها خطواتك تزحف للقاء مرتقب حتى تصلين وكأنها أسفار مديدة.

هنا المزارعون يذرفون دموع الوداع وأناشيد الغروب قافلة وداعهم تستحضرها روحي الواهمة وما زالت مؤمنة بـ(دان) أبوبكر سالم بالفقيه: "يا مروح بلادك ليل والشمس غابت.. عادنا إلا اجتمعنا والتلاحين طابت".

صراع اللحن والكلمة

الشوق والقدر

الحب والوشاة

لقد سافرت في أتون الشوق كثيراً، هأنا اللحظة أمدّ يدي الكسيرة في تلويحة سأترك لك تسميتها، فهي مولودنا الخِدْج الذي هصرته أوجاع المسافات..

مسافات الحب

مسافات القلب

مسافات الحقيقة

مسافات الفروق

شمس الغروب واصفرار الحلم كسنابل الفلاح الآذنة بالحصاد، نشيدك العقيم الذي لم ينجب لحناً غير نواح (الوطن الأعرج) وهلوسات (الأعدقاء) الافتراضيين.

يدٌ كسيرة تشرع مثقلة بتلويحة، وذاكرة مهصورة بحلم ولحظة فراق

أرفع زجاج السيارة كي لا تتسلل نبضة من قلب الليل القادم بكل هذا الهول يشرع أذان الغروب من مسجل السيارة بصدى درويش وحداء أيمن الحلّاق:

" آمنت يا أماه بالغد والصباح

وبالجراح

آمنت بالجرح الذي شد الجراح

إلى الجراح"

وما زالت السيارة تنهب المسافات الهاربة، ويدي تلوّح في قلب الليل الذي أطبق بفكيه على لوحة الغروب.

تشرين الثاني/ 2015م

مســرد

مفتتح.....4
ثلاثة وجوه للصفيح.....5
رائحة البُنّ.....9
ألواح القدر..... 13
عرس السماء..... 18
ظهر تشيخوف..... 22
حلوى الشعوبية..... 24
نصف تحليقة..... 26
عرض مسرحي محموم..... 27
حضرموت..... 30
مقهى الحياة 32
لعب طردي..... 33
قيامة..... 35
شاطئ الشمس..... 36
امرأة الفصول..... 38
تلويحة لذاكرة الغروب..... 42